بديع الزمان الهمذاني

٣٥٨ ـ ٣٩٨ هـ

لم تنتكس الثقافة في القرن الرابع للهجرة بانتكاس الخلافة بمجدها وعزّها وأبهتها . بل بقي بريقها وهّاجاً . وظلت البيئات العلمية والأدبية مزادانةً بالعلماء والأدباء . حتى قال أحدهم : إنّ هذا العصر يستحقُّ أنْ يُسمّى زبدة الحقب(١٢٨٩) . انه حقاً عصر علم وأدب وشعر ومقامات وتأليف وفلسفة . ومن أراد التأكد من ذلك فليراجع أحد الكتب التي تناولت هذا العصر . وهو كتاب يتيمة الدهر لأبي منصور الثعالبي/ويرى العدد الكبير من أرباب القلم . أحدهم بديع الزمان الهمذاني . رائد فن المقامات

سيرته :

هو أبو الفضل . أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد . ويُعرف ببديع الزمان . ولا نعرف كيف نال هذا اللقب(١٢٩٠) . وربما يكون من صُنعهِ أو صُنع أبي منصور الثعالبي الذي عاصره وترجم له(١٢٩١) . فقال : « هو أحمد بن الحسين بديعُ الزمانِ . ومُعجزةُ همذان »(١٢٩٢)

ولد في همذان في الثالث عشر من جمادي الآخرة . سنة ٣٥٨ للهجرة . من أسرة يصل نسبها الى بني مضر . وقد صرّح بذلك فقال : « اني عبدُ الشيخ . واسمي أحمد . وهمذانُ المولد . وتَغْلِبُ المورِد . ومُضَرُ المحتِد »(١٢٩٣) . ولم يكتف بذكر نسبه العربيّ . بل انتصر للعرب في كتاباته . فقال في رسالة الى الشيخ الرئيس أبي عامر عدنان بن محمد : « نحن ـ أطال الله بقاء الشيخ ـ اذا تحدّثنا في فضل العرب على العجم وعلى سائر الأمم . أردنا بالفضل ماأحاطتْ به الجدودُ . ولم ننكرْ أن تكون أمةٌ أحسن من العربِ ملابس . وأنعمَ منها مطاعم . وأكثرَ ذخائر . وأبسطَ ممالك . وأعمرَ مساكن . ولكنّا نقولُ : العربُ أوفى وأوفر . وأوقى وأوقر . وأنكى وأنكر . وأعلى وأعلم . وأحلى وأحلم . وأقوى وأقوم . وأبلى وأبلغ . وأشجى وأشجع . وأسمى وأسمح . وأعطى وأعطف . وألطى وألطف .(١٢٩٤) وأحصى وأحصف . وأنقى وأتق . ولا ينكرُ ذلكَ إلاّ

(١٢٨٩) بديع الزمان الهمذاني ، مارون عبود ، ص ١٤ .

(١٢٩٠) قال الدكتور شوقي ضيف : « ان اسمه لايعرفه الناس ، وإنما يعرفونه بلقبه الذي أطلقه عليه معاصروه » . الفن ومذاهبه في النثر العربي ص ٢٤٠ .

(١٢٩١) ينظر : مقامات بديع الزمان على أحاديث ابن دريد ص ١٣ .

(١٢٩٢) يتيمة الدهر ٤ : ٢٥٦ .

(١٢٩٣) رسائل أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني ص ٤ .

(١٢٩٤) ألطى : اللطاة : الجبهة ، يقال بيّض الله لطاتك أي جبهتك .

وقِحٌ وتِحٌ(١٢٩٥) . ولا بجحدُه إلاّ نغلٌ نغرٌ(١٢٩٦) ... »(١٢٩٧) .

نشأ في همذان . وتسلّم فيها القراءة والكتابة . وكان أخوه محمد بن الحسين مفتي البلدة(١٢٩٨) . وتتلمذ على العلماء والأدباء . منهم أبو الحسين أحمد بن فارس الأديب الكبير واللغوي المشهور . صاحب المجمل في اللغة(١٢٩٩) . وأبو بكر محمد بن الحسين الفراء . وعيسى بن هشام اللغوي الاخباري . وكان بديع الزمان ذكياً . قوي الحافظة . قال الثعالبي : « كان ينشدُ القصيدة التي لم يسمعها قطّ ـ وهي أكثر من خمسين بيتاً ـ فيحفظها كلّها ويؤديها من أولها الى آخرها . لا يخرم حرفاً ولا يخل بمعنى . وينظر في الأربعة والخمسة أوراق من كتاب لم يعرفه ولم يره نظرة واحدةً خفيفةً ثم يهدُّها عن ظهر قلبه هذّاً . ويسردُها سرداً . وهذه حاله في الكتب الواردة عليه »(١٣٠٠) . ويُعلقُ أحد الباحثين على هذا القول . فيقول : « انها مبالغات نسبوا مثلها الى المتنبي . والمعري . وأبي تمام . وهي عندي الى الحكايات أقرب منها الى التاريخ الرصين . فليست الأذهان دفاتر . ولا آلات تصوير شمسية . حتى تحفظ . وتلتقط آثار الأدباء كما هي »(١٣٠١) .

خرج بديع الزمان من همذان سنة ٣٨٠ للهجرة طلباً للمال والجاه والشهرة . فقصد الصاحب بن عباد (ت ٣٨٥ هـ) وبقي عنده زمناً في أصبهان المشهورة بجمال طبيعتها . وكانت آنذاك تعج بالأدباء والعلماء من أبنائها والوافدين عليها . وقد عدّها الدكتور مصطفى جواد معقلاً للأدب العربي(١٣٠٢) . وبعد تزوده بثمار الصاحب بن عباد وحسن آثاره . ارتحل الى جرجان « وأقام بها مدة على مداخلة الإسماعيلية والتعيش في أكنافهم »(١٣٠٣) . ثم تركها . وشرح سبب تركها في رسالة كتبها الى أبي نصر ابن المرزبان(١٣٠٤) . فجاء الى نيسابور سنة ٣٨٢ للهجرة . « وكان لواء الرئاسة والصدارة فيها معقوداً لأسرة بني ميكال . وهي أسرة علم وأدب وفضل .

(١٢٩٥) وتح : خسيس .

(١٢٩٦) نغر : حقود .

(١٢٩٧) رسائل أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني ص ١٦٩ .

(١٢٩٨) معجم الادباء ١ : ٩٥ .

(١٢٩٩) ينظر : المقامات من ابن فارس الى بديع الزمان الهمذاني ص ٩ .

(١٣٠٠) يتيمة الدهر ٤ : ٣٥٦ .

(١٣٠١) بديع الزمان الهمذاني ، مارون عبود ، ص ١٧ .

(١٣٠٢) ينظر بحث الدكتور مصطفى جواد (أصفهان معقل الادب العربي في ايران) مجلة المجمع العلمي العراقي ، المجلد العاشر ، ١٩٦٣ ، ص ٦٩ ـ ٩٤ .

(١٣٠٣) يتيمة الدهر ٤ : ٣٥٧ .

(١٣٠٤) رسائل أبي الفضل بديع الهمذاني ص ٩٣ .

وكان أفرادها يُلقَّبون بالأمراء . وكانوا يشجعون الأدب ويصلون الشعراء(٣٠٥) » . وألمعُ . من عاش من هذه الأسرة في القرن الرابع للهجرة الأمير أحمد بن علي بن ميكال والأمير أبو الفضل عبيدالله بن أحمد بن ميكال . وكان هذا الأخير كاتباً شاعراً شبهه الثعالبي بابن العميد والصاحب بن عباد وأبي اسحاق الصابي وابن المعتز وأبي فراس من الشعراء(٣٠٦)

وكان بديع الزمان قبل وصوله الى نيسابور قد سلبَ قطاعُ الطرقِ من الأعراب ماكان له من مال وأمتعة وأصبح مُعدماً . وخاطب أبا بكر الخوارزمي (ت ٣٨٣ هـ) شيخ عصره في علوم اللغة والبلاغة وأيام العرب وأمثالها بهذه الرسالة : أنا لقربِ الأستاذ أطالَ الله بقاءه (كما طربَ النَّشْوانُ مالتْ به الخمرُ) ومن الارتياح للقائه (كما انتفضَ العصورُ بلَلَهُ القطرُ) ومن الامتزاج بولائه (كما التقتِ الصهباءُ والباردُ العذبُ) ومن الابتهاج بمرآه (كما اهتزَّ تحت البارح الغصنُ الرطبُ) فكيف نشاط الأستاذ لصديق طَوَى اليه مابين قصبتي العراق وخرسان . بل مابين عتبتي نيسابور وجرجان . وكيف اهتزازه لضيف في بُردة جَمَّال . وجلدة خمَّال :

رثُّ الشمائل مُنْهَجُ الأثواب بكرتْ عليه مغيرةُ الأعراب

وهو أيده الله ولي انعامة بانقاذ غلامه الى مستقري، لأفضي اليه بسرّي. انْ شاء الله تعالى »(٣٠٧) . ولم يحسن الخوارزمي لقاءه . وحصلت بينهما نفرة وجفوة وقطيعة . تحولت فيما بعد الى عداوة . وحدثت بينهما أمام جمع من الناس معركةٌ أدبيةٌ حاميةٌ . خرج منها بديع الزمان ظافراً وانحسر الخوارزمي مخذولاً (٣٠٨) .

ترك بديع الزمان نيسابور الى سجستان . وكان أميرها آنذاك الأديب خلف بن أحمد . ولقي حفاوة وتقديراً منه وأهدى اليه مقاماته ومدحه بقصيدة مطلعها :(٣٠٩)

سماء الدُّجى . ماهذه الحدقُ النجلُ أصدر الدُّجى حالٍ وجيد الضحى عطلُ ؟
لكَ الله من عزمٍ أجوبُ جيوبه كأنّي في أجفانِ عين الرَّدى كحلُ

(١٣٠٥) بديع الزمان الهمذاني ، الدكتور مصطفى الشكعة ، ص ٥٥ .
(١٣٠٦) تنظر : يتيمة الدهر ٤ ، ٢٥٤ .
(١٣٠٧) رسائل أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني ص ٨٣ .
(١٣٠٨) تنظر المناظرة في رسائل البديع ص ١٧ ، ومعجم الأدباء ١ ، ١٠١ .
(١٣٠٩) ديوان بديع الزمان ص ٦٥ .

وكان البديع يحبُّ السفر . ويرغبُ في الارتحال . اذ نراه يذهب شرقاً الى غزنة عاصمة السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوي . الذي كان يهوى لقاء الأدباء والعلماء . ويشجعهم على البقاء عنده وبعد اقامة قصيرة في كنف هذا السلطان توجَّه الى هراة وألقى فيها عصا الترحال . وتزوَّج من ابنة أبي علي الحسين بن محمد الخُشنامي أحد فضلاء هذه المدينة . فاطمأنتْ نفسه . وحسن حاله . وطاب له المقام وأقتنى مالاً وضياعاً . وعاش عيشة راضية . وأنجب أولاداً . وفي سنة ٣٩٨ للهجرة لبّى نداء ربه . وهو في الأربعين من عمره .

آثاره :

كان بديع الزمان شاعراً وناثراً على السواء . وقد ترك لنا الآثار الآتية :

١ ـ ديوان شعره . وهو مطبوع . والقاريء فيه يجده لا يتخلّى ـ كما هو الحال في نثره ـ عن الجناس والسجع والازدواج والمعميات والأحاجي ....

٢ ـ رسائله . وهي مطبوعة . تناول فيها موضوعات كثيرة من مدح . وهجاء . وعتاب . واعتذار . وعزاء وشكوى . وتهنئة . ووصف . واستعطاف ...

٣ ـ مقاماته . وهي مطبوعة . وعددها اثنتان وخمسون مقامة .

نثره وأسلوبه :

جاء بديع الزمان ووجد أمامه الصنعة قد قطعتْ شوطاً كبيراً في ميدان النثر العربي . على يد كتّاب كبار أمثال : ابن العميد . والصاحب بن عباد . وأبي بكر الخوارزمي . فسار على خطاهم . وأبدى جدارةً فائقة وقدرةً عالية في هذه الصنعة بحيث فاقهم في الشهرة ولا سيما في مقاماته .

لقد تسربت الصنعةُ الى نثره . وتجاوزتْ أحياناً الحد المعقول في التزام السجع . والتشبيهات . والاستعارات . والكنايات . والمحسنات اللفظية والمعنوية . والرمز والتلميح . والاشارات ... والميل الى التصعيب والتعقيد . روى الثعالبي في يتيمته أنه « كان ربما يكتب الكتابَ المقترحَ عليه فيبتديء بآخر سطر منه ثم هَلُمَّ جرًّا الى الأول . ويُخرجُه كأحسن شيء وأملحه . ويؤشحُ القصيدة الفريدة من قوله بالرسالة الشريفة من انشائه . فيقرأ من النظم والنثر . ويروي من النثر والنظم . ويعطي القوافي الكثيرة فيصلُ بها الأبياتَ الرشيقة . ونُقترحُ عليه كلُّ عويص وعسير من النظم والنثر فيرتجلُه في أسرع من الطَّرْفِ على ريقٍ لا يبلعه . ونَفَس

لا يقطعه(٣١٠) ». وقد أقرَّ البديع في مناظرته مع أبي بكر الخوارزمي أنه يستطيع أن يقترح عليه أربع مئة صنف في الترسل. ثم يستطرد فيصف بعض هذه الأصناف فيقول: انه يستطيع أن يكتب كتاباً يُقرأ منه جوابه. أو كتاباً يُقرأ من آخره الى أوله. أو كتاباً اذا قُرِيء من أوله الى آخره كان كتاباً. فإن عُكست سطوره مخالفة كان جواباً. أو كتاباً لا يوجد فيه حرف منفصل من راء يتقدم الكلمة أو دال ينفصل عنها. أو كتاباً خالياً من الألف واللام. أو كتاباً خالياً من الحروف العواطل. أو كتاباً أول سطوره كلها ميم وآخرها جيم. أو كتاباً اذا قُرِيء معرجاً وسُرد معوجاً كان شعراً. أو كتاباً اذا فُسِّرَ على وجه كان مدحاً واذا فُسِّرَ على وجه كان قدحاً(٣١١). ومع هذا الاعتراف بالتعقيد نجد له رسائل تتسم بلغة واضحة ذات ألفاظ موسيقية عذبة لها وقع حسن في الأذن.

ومما يلاحظ في نثره كثرة الاستشهاد بالآيات القرآنية. والأمثال. والحكم. والأبيات الشعريه من نظمه أو من نظم شعراء آخرين. وأحياناً يمعن في هذا الاستشهاد كما نرى في رسالته الى أبي جعفر الميكالي التي ضمنها ستة وثلاثين بيتاً في الوقت الذي لم تتعد الرسالة بضعة وعشرين سطراً. والى جانب الشعر في هذه الرسالة نجد حكماً وأمثالاً. مثل قوله: وبذل الموجود غاية الجود. وبعض الحمية آخر المجهود. وماش خير من لاش. ووجود ماقل خير من عدم ماجل. وقليل في الجيب خير من كثير في الغيب. وحمار هو خير من فرس ليس. وكوخ في العيان خيـر مـن قصر في الوهم. وزيت خير من ليت. وما كان أجود من لو كان. وقد قيل عضفور في الكفّ خير من كركيّ في الجو. ولأن تقطف خير من أن تقف. ومن لم يجد الحميم رعى الهشيم. ومن لم يحسن صهيلاً نهق. ومن لم يجد ماءً تيمم »(٣١٢)

واشتهرت مقاماته أكثر من رسائله. وهي قائمة على الكدية باستثناء ثلاث عشرة مقامة تتناول أغراضاً شتى في المديح والوصف والنقد والأدب والألغاز والوعظ والحجاج في المذاهب وأحوال الزمان والفكاهة.

(١٣١٠) يتيمة الدهر ٤: ٣٥٦.
(١٣١١) رسائل أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني ص ٥٠، وينظر الفن ومذاهبه في النثر العربي ص ٢٤٥.
(١٣١٢) رسائل أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني ص ٦٠ ـ ٦١.

والمقامات أرحب من رسائله معنىً . وألطف مبنًى . وأخف صنعةً . وأكثر فكاهةً وأوفر مرحاً واضحاكاً . قال الدكتور زكي مبارك : « إنَّ مقامات بديع الزمان تُحفة من تحف النثر الفني في القرن الرابع . وقد أردنا أنْ نُطيلَ بها الطواف ليتعرَّفَ اليها القارئ . فقد كان مفهوماً عند كثير من الناس أنها ألاعيب لفظية ليس فيها من المعاني ما يستحقُّ الدرسَ . ولكنا بعد مواجهتها مرةً ومرةً رأينا فيها من أمارات العقل والذكاء وخفَّةِ الروح ما يُوجبُ الاعجاب . وكنا نحفظها في الحداثة . غير انا لم نكن ندركُ خطرها كما تمثلتْ لنا في هذه الأيام »(٣١٣)

تقوم أحداثُ المقامات على كاهل رجلين ابتدعهما بديع الزمان . الأول الراوي عيسى بن هشام والثاني البطل المغامر أبو الفتح الاسكندري . وأحياناً يغفل عن هذا البطل كما هو الحال في المقامات الثلاث : البغدادية . والنهيدية . والغيلانية .

إن أسلوب البديع في المقامات مسجوع مُنَمَّق . يعتمد على الصنعة . اذ نراه يتكيءُ على التشبيهات . والاستعارات . والكنايات . وضروب المحسنات البديعية ولا سيما الجناس والطباق . ويكثر من الجمل الاعتراضية . والترادف في اللغة للمعنى الواحد . والاستشهاد بالشعر . فلا تخلو مقامة من أبيات . لاتقل عن بيتين . من نظمه أو من نظم الشعراء الأقدمين وكذلك الاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف . مثال ذلك البيتان الآتيان :(٣١٤)

حتى اذا جُزْتُ بلادَ العِدى ... الى حمى الدّين نقضتُ الوجيبْ
فقلتُ اذ لاخ شعارُ الهُدى ... (نصرٌ من الله وفتحٌ قريبْ)

ومثل قوله : « أثارتني ورفقةٌ وليمةٌ فأجبتُ اليها للحديثِ المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو دُعيتُ الى كراعٍ لأجبتُ ولو أهدي الىَّ ذراعٌ لقبلتُ »(٣١٥) ويلتجيء احياناً الى الأمثال اما مقتبسة واما مبتكرة مثل قوله في المقامة الجاحظية : « ياقوم لكلِّ عملٍ رجالٌ . ولكلِّ مقامٍ مقالٌ . ولكلِّ دارٍ سكانٌ . ولكلِّ زمانٍ جاحظ »(٣١٦)

---

(٣١٣) النثر الفني في القرن الرابع ١ : ٢٧٧ .
(٣١٤) مقامات بديع الزمان . المقامة القزوينية ص ٩٧ .
(٣١٥) مقامات بديع الزمان ص ٨٤
(٣١٦) نفسه ص ٨٩ .

والبديع اديبٌ ظريفٌ . وكاتبٌ طريفٌ . وفنانٌ موهوبٌ . وقصصيٌ ملهمٌ . يقدم مقاماته بأسلوب محكم تظلله روح فكهة مرحة . وقد اخترنا للقاريء المقامة البغدادية ليقف على طبيعة هذا الاسلوب في ايراد المشاهد الغريبة وربطها ببراعة مع بعضها وصولاً الى نتيجة لطيفة ترقُّ لها القلوب : « حدثني عيسى بن هشام : قال : اشتهيتُ الأزاذَ .(١٣١٧) وأنا ببغداذ . وليس معي عقدٌ . على نقدٍ(١٣١٨) . فخرجتُ أنتهز محالهُ حتى أحلَّني الكرخَ . فاذا أنا بسواديٍ(١٣١٩) يسوقُ بالجهدِ حمارَهُ . ويُطرِّفُ بالعقدِ ازارَهُ . فقلتُ : ظفرنا والله بصيدٍ . وحياكَ اللهُ أبا زيدٍ . من أينَ أقبلتَ ؟ وأين نزلتَ ؟ ومتى وافيت ؟ وهَلُمَّ الى البيتِ . فقال : السواديُّ . لست بأبي زيدٍ . ولكني أبو عبيدٍ . فقلتُ : نعم . لعن الله الشيطانَ . وأبعد النسيان . أنسانيك طولُ العهد . واتصالُ البعد . فكيف حالُ أبيكَ ؟ أشابُ كعهدي . أم شابَ بعدي ؟ فقال : قد نبتَ الربيعُ على دمنتـه .(١٣٢٠) وأرجو أن يُصيِّرَهُ اللهُ الى جنتهِ . فقلتُ : إنَّا للهِ وانَّا اليه راجعون . ولا حول ولا قوةَ الاّ باللهِ العليِّ العظيمِ . ومددتُ يد البدارِ الى الصُدار .(١٣٢١) اريد تمزيقهُ . فقبضَ السواديُّ على خصري بجمعه . وقال : نشدتُكَ اللهَ لامزَّقتَهُ . فقلتُ : هلُمَّ الى البيتِ نُصبْ غداءَ . أو الى السوقِ نشترِ شواءً . والسوقُ أقربُ . وطعامه أطيبُ . فاستفزَّتْهُ حمةُ القرم . وعطفتهُ عاطفة اللُّقم .(١٣٢٢) وطمعَ . ولم يعلم أنَّه وقعَ . ثم أتينا شوّاءً يتقاطرُ شواؤه عرقاً . وتتسايلُ جوذاباتُهُ مرقاً(١٣٢٣) فقلتُ : أفرزْ لأبي زيدٍ من هذا الشواء . ثمَّ زِنْ له من تلك الحلواء . واختر له من تلك الاطباقِ . وانضد عليها اوراقَ الرّقاقِ . ورشَّ عليه شيئاً من ماءِ السُّماقِ . ليأكله أبو زيدٍ هنيئاً . فانحنى الشّوّاءُ بساطوره . على زبدةٍ تَنُورِه . فجعلها كالكحلِ سحقاً . وكالطَّحنِ دقّاً . ثم جلس وجلستُ . ولا يئسَ ولا يئستُ . حتى استوفينا . وقلتُ لصاحبِ الحلوى : زِنْ لأبي زيدٍ من اللوزينج رطلين فهو أجرى في الحلوقِ .

(١٣١٧) من اجود انواع التمر .

(١٣١٨) النقد : المسكوك من الذهب والفضة

(١٣١٩) السوادي : الرجل من رساتيق العراق وقراه ، نسبة الى السواد ، وسمي العراق سواداً لاكتساء ارضه بالخضرة من نبات وأشجار .

(١٣٢٠) المراد بالدمنة القبر .

(١٣٢١) البدار : المبادرة والمسارعة . الصدار : ثوب يلبس مما يلي الجسد .

(١٣٢٢) استفزته : استهوته وحركته بشدة . الحمة للشيء شدته ، يقال لسعته حمة البرد اي شدته ، والحمة في الاصل : ابرة العقرب التي تلسع بها . القرم : الشهوة البالغة لأكل اللحم . اللقم : السرعة في الاكل .

(١٣٢٣) الجوذابات : جمع جوذابة ، وهي خبز يخبز في تنور وفوقه لحم .

وامضى في العروقِ . وليكن ليليَّ العمر . يوميَ النَّشر(٣٢٤) . رقيق القشر . كثيفَ الحشو . لؤلؤيَّ الدهنِ . كوكبيَّ اللون . يذوب كالصمغ . قبل المضغ . ليأكله أبو زيد هنيئاً . قال : فوزَنْهُ ثم قَعَدَ وقعدتَ . وجرّدَ وجرّدتَ . حتى استوفيناهُ . ثم قلتَ : ياأبا زيد ماأحوجنا الى ماء يشعشع بالثلج ليقمع هذه الصَارّة .(٣٢٥) ويفثأ(٣٢٦) هذه اللُقم الحارة . اجلس ياأبا زيد حتى نأتيكَ بسقاء يأتيك بشربة ماء . ثم خرجت وجلستُ بحيث أراه ولا يراني أنظر مايصنع . فلما أبطأتَ عليه . قام السوادي الى حماره . فاعتلق الشوّاء بازاره . وقال : اين ثمن ماأكلتَ ؟ فقال أبو زيد : أكلته ضيفاً . فلكمه لكمةً . وثنّى عليه بلطمةٍ . ثم قال الشوّاء : هاكَ . ومتى دعوناكَ ؟ زِنْ ياأخا القِحَةِ عشرين(٣٢٧) فجعل السوادي يبكي ويحلُّ عُقدَهُ بأسنانهِ ويقولُ : كم قلتُ لذاكَ القُرَيِّد .(٣٢٨) أنا أبو عبيد . وهو يقول : أنتَ ابو زيد . فأنشدتُ :

أعمـلْ لرزقـكَ كـلَّ آلـة ... لا تـقعـدنَّ بـكـلِّ حالـة
وانـهـضْ بـكـلِّ عـظـيـمة ... فالمرءُ يعجزُ لا محالة(٣٢٩)

وتجدر الاشارة في آخر هذه الدراسة الموجزة لسيرة بديع الزمان ونشره الى أن الباحثين جميعاً أثنوا على المقامات واشادوا بمكانتها بين الفنون النثرية التي وصلت الينا ماعدا محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقا (ت ٧٠٩ هـ) من القدامى . والدكتور محمد مهدي البصير من المحدثين . قال ابن الطقطقا : « المقامات لا يستفاد منها سوى التمرن على الانشاء . والوقوف على مذاهب النظم والنثر . نعم وفيها حِكَمٌ وحيلٌ الاّ ان ذلك مما يصغر الهمة . اذ هو مبني على السؤال والاستجداء والتحيل القبيح على تحصيل النزر الطفيف . فان نفعتْ من جانب ضرّتْ من جانب . وبعض الناس تنبهوا على هذا من المقامات الحريرية والبديعية »(٣٣٠) اما الدكتور محمد مهدي البصير فيقول : « أما مقامات الهمداني فانها جناية لاتغتفر على الأدب العربي ، ذلكَ انه خلق فيها أدب الشحاذة خلقاً وأنشأه انشاءً . ولم يخل

(١٣٢٤) ليلى العمر : اي قد صنع بالليل . يومي النشر : اي نشر من مصنعه بالنهار فيكون قد نضج وسرت الحلاوة في جميع اجزائه .

(١٣٢٥) الصارة : العطش

(١٣٢٦) يفثأ : يسكن ، وتسكين اللقم : كسر الحدة من حرارتها .

(١٣٢٧) القحة : الوقاحة وسوء الادب . ومعنى زن عشرين : اعط وزن عشرين درهماً .

(١٣٢٨) القريد : تصغير قرد .

(١٣٢٩) مقامات بديع الزمان ص ٧١ ـ ٧٤ .

(١٣٣٠) الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية ص ١٥

الأدب العربي من الشحاذة لسوء الحظ على ألسن الشعراء المداحين . ولكنها ظهرت في هذه المرة بأبشع صورها . وأقبح اشكالها . وأخس طرقها واساليبها سامح الله الهمداني . فانه أساء الى الادب بمقاماته اكثر مما احسن اليه بشعره ورسائله »(١٣١) وقد كفانا الدكتور محسن غياض بالردّ على هذين القولين . فقال : « ونحن نعتقد أنّ ابن الطقطقا والمرحوم البصير قد تطرّفا في مهاجمة المقامات تطرفاً لا مبرر له . فهي دون شكٍ صدى لظاهرة الكدية في عصرها . ولا نرى فيها ما يصغر الهمة ويشجع على التسول . والانسان لا يكون متسولاً اذا قرأ أدب التسول . وانما هو أمر تضطره اليه ظروف الحياة وفقدان العدالة الاجتماعية . ولو كان الأمر كذلك لأصبح كلُ من قرأ أدب المجون ماجناً وكل من قرأ شعر الزهد زاهداً . وليس الامر كذلك يقيناً . كما أن البديع لم يخلق التسول والشحاذة . ولم يدع اليهما . وانما صوّر ظاهرةً موجودة في عصره . واستمد موضوع مقاماته من حياة طبقة بائسة من طبقات المجتمع آنذاك . وتلك في نظرنا ميزة يحمدُ عليها . فقد كان الادباء قبله يستمدون موضوعاتهم من حياة الطبقة الغنية . فكثرت قصصهم واحاديثهم عن الخلفاء والامراء والوزراء والمشهورين من العشاق والمغنيات والظرفاء ثم جاء البديع فخالف ذلك واستمد موضوعاته من حياة الفقراء من الناس الذين اضطرهم فساد النظام السياسي والاجتماعي الى الاستجداء والاحتيال في طلب الرزق . والبديع بهذا يقدم لنا وثيقة ادانة لفساد النظام السياسي عندما تغلبت العناصر الاعجمية ومزقت الدولة الواحدة وعاثت بها فساداً (١٣٢) .

---

(١٣١) في الادب العباسي ص ٩٨

(١٣٢) مقامات بديع الزمان الهمداني ، المنشور في مجلة الطليعة الادبية ، العدد ٦ سنة ١٩٧٧ .